الأطلسيون.. قادمون!!

■.. قفز اسم حلف شمال الأطلسي «الناتو» في ذكرى ميلاده الـ ٤٥ الى صدارة الاهتمام الاعلامي والسياسي في العالم.. وفي القلب منه منطقتنا العربية المتفجرة في العراق وفلسطين.

ومع كل يوم من عمر احتلال العراق، واتساع ورطة «الأمريكان» وحلفائهم، تتضاعف نظرة الارتياب الى نوايا الحلف خارج حدوده الأطلسية، خاصة مع انضمام سبع دول جديدة الى عضوية «الناتو» وذلك في أكبر توسعة له منذ ظهوره في الرابع من ابريل ١٩٤٩م، وفي أوج الحرب الباردة بين «الشرق» و«الغرب».. أو بالأحرى بين المعسكرين «الاشتراكي» بقيادة الاتحاد السوفيتي و«الرأسمالي» بزعامة الولايات المتحدة.

عبدالحليم سيف

●●●

ومنذ الثالث من ابريل الحالي، راجت عشرات الأسئلة حول «الناتو» ومغزى التحاق أعضاء خرجوا من حلف وارسو المنحل في ١٩٩١م مثل رومانيا وبلغاريا وسلوفاليا وأسلوفانيا ودول بحر البلطيق الثلاث التي كانت في اطار الاتحاد السوفيتي وهي ليتوانيا ولاتفيا وأستونيا.

ومن علامات الاستفهام المثارة.. الى أين يتجه الناتو بعد ارتفاع عدده الى ٢٦ عضواً..؟!

ولماذا يُنظر الى هذا التوسع بمزيد من الشكوك كحلف عسكري غربي.. وضع المنطقة العربية في صدارة أجندته التي يعتزم البدء بها بعد انعقاد قمته في اسطنبول في يونيو المقبل..؟!

وما يثير دهشة السؤال بروز اسم «الناتو» في المبادرة الأمريكية الأوروبية حول «الشرق الأوسط الكبير» إذ سيناط بالحلف التدخل المباشر لاقتلاع «جذور الارهاب» وجلب الرخاء لنحو ستمائة مليون نسمة، ينتشرون من موريتانيا غرباً حتى أفغانستان شرقاً.. عبر الاصلاح الديمقراطي والسياسي، وتحقيق التطور الاجتماعي والاقتصادي!!

وهذا الانتقال ليس عبثاً، كما يبدو للوهلة الأولى، بل هو انتقال خُطط له منذ تسعينيات القرن العشرين.

بدون الدخول في التفاصيل يمكن لمن يستعيد ترتيب الحقائق المتصلة بمسيرة «الناتو» ابان الحرب الباردة وبعدها، يجد أن هدف الحلف الأطلسي هو شن الحروب لتحقيق أهداف استراتيجية، فشل الوصول اليها عبر القنوات الدبلوماسية والسياسية.

بمعنى آخر هذا الحلف الذي كان يفترض حله بعد زوال خصمه الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١م، تم الاحتفاظ به وتوسيعه وتحويل عقيدته العسكرية من «الدفاع» الى «الهجوم».

واذا تركنا الحاضر قليلاً، وعدنا الى الماضي لتأمل تاريخ «الناتو» سنرى أن الحلف أنشئ في الرابع من ابريل ١٩٤٩م كمؤسسة عسكرية وسياسية تضم دولاً من أوروبا الغربية وشمال أمريكا لتحقيق ثلاثة أهداف هي:

● درء أي خطر أو هجوم محتمل قادم من الاتحاد السوفيتي أو من حلفائه في أوروبا الشرقية عبر ذراعه العسكري «حلف وارسو».

● عدم قيام حرب عالمية ثالثة تطيح بالتقدم الصناعي والاجتماعي في الغرب.

● الدفاع عن أمن أعضاء الناتو داخل أوروبا الغربية الأطلسية.

ومن يتفحص الأهداف الثلاثة وربطها بما حدث بعد نهاية الحرب الباردة ١٩٩١م سيلاحظ سطوع الهيمنة الأمريكية على الأطلسي، وهدفها ابقاء قوات الولايات المتحدة في أوروبا في اطار الناتو كمظلة أمريكية للدفاع عن القارة البيضاء، ولم تنحسر تلك الهيمنة بعد تسليم الاتحاد السوفيتي، بل تعاظمت أكثر مع انهيار حائط برلين في نوفمبر وسقوط دول أوروبا الشرقية في مستنقع الفوضى والتفتت واستعار الحروب العرقية والنزعة الانفصالية في دول البلقان.

●●●

وأوضح أن الأطلسيين الذين كانوا يتطلعون بأبصارهم نحو البلاد العربية بعد أن استبدلوا عدوهم القديم بآخر جديد، كان عليهم أن يعيدوا بناء أوروبا الشرقية بعد تفكيكها.

ولئن حرص أقطاب الناتو على تلمس الذرائع، والتعلل بمختلف الأسباب لتبرير غزوهم أو حروبهم التوسعية، فإنهم لم يخفوا الدوافع الحقيقية أمام شعوبهم.. فقد كانوا في أحيان كثيرة لا يخشون الصراحة أمام برلماناتهم ويعتزمون أن لهم في البقاع العربية الهامة مصالح استثمارية.. فهناك النفط أولاً، والموقع الاستراتيجي ثانياً، والخشية من ظهور وحدة عربية تطيح بتلك المصالح العربية ثالثاً.

من هنا عكف خبراء الاستراتيجية في مراكز الدراسات والأبحاث الغربية واخترعوا في ١٩٩٣م «فكرة مكافحة الأصولية» وسرعان ما تبلورت ملامح العدو الجديد في الندوات والمؤتمرات والتصريحات.. فهذا فيلي كلاس – أمين عام الناتو في ١٩٩٤م في حديث نشرته صحف ألمانية يزعم: «أن التطرف يعد واحداً من أهم التحديات التي تعترض طريق الغرب منذ انتهاء الحرب الباردة.. هو خطر الأصولية الاسلامية الذي يساوي على الأقل خطر الشيوعية من قبل»!!

وهذه التصريحات كانت مقدمة لاختراع جنرالات الغرب فكرة محاربة الأصولية في مؤتمر ميونيخ العالمي للشئون الأمنية المنعقد في يناير ١٩٩٤م بمشاركة ٢٠٠ من رؤساء حكومات ووزراء الدفاع وخبراء عسكريين.

ولم يكن قول كلاس يتيماً كما جاء في مقالة عميقة للباحث/ نبيل شبيب في مجلة «قضايا دولية» في العدد «٦٨» وتاريخه ٢٦ فبراير ١٩٩٥م، فكان وزير الدفاع الأمريكي وقتذاك/ ديك تشيني (نائب الرئيس بوش حالياً) أمام مؤتمر ميونيخ هو أول من طرح مقولة «الاسلام هو العدو البديل للشيوعية».

●●●

ومع أن «الناتو» لم يكن في عجلة من أمره لنقل حربه المفتوحة الى الساحة العربية قبل توسعه وتغيير عقيدته.. وهو ما تحقق له مع الاحتفال بالذكرى الخمسين للحلف في عام ١٩٩٩م وهو الاحتفاء الذي جاء في تاريخ حاسم للغاية.. فكانت يوغسلافيا بوابة التحول من «الدفاع» الى «الهجوم» بدءاً بشن حرب على نظام ميلوسيفتش تزامن مع انضمام ثلاث دول من أوروبا الشرقية وحلف وارسو: بولندا، المجر، وتشيكيا.

في تلك الأثناء تمكنت الادارة الأمريكية في عهد كلينتون من اقناع الأوروبيين بأن الناتو هو الذراع القومي لحماية الديمقراطية في البلقان.. مما يعني أن الأطلسي لم يشن حرب الـ ٨٧ يوماً من أجل انقاذ مليون نسمة في كوسوفا من المحرقة الصربية بعيداً عن الشرعية الدولية ممثلة بالأمم المتحدة.

فالحلف تدخل في تلك المنطقة – وفقاً لاجماع المحللين – لأسباب عديدة منها:

● ان الوقت حان لاثبات مصداقية الناتو في قلب أوروبا.

● تصفية الحسابات المعلقة من الحرب العالمية الثانية بين دول الأطلسي ودول شرق أوروبا.

● استعراض القوة العسكرية في البلقان قبل التوجه نحو الشرق الأوسط لبناء النظام العالمي الجديد.

إذن بعد قصف الجيش الصربي وتدمير البنية التحتية لنظام ميلوسيفيتش، واحراق كوسوفا وتشريد الآلاف من سكان الاقليم ذوي الأغلبية الاسلامية.. سكتت المدافع ليجتمع قادة الناتو في قمة واشنطن في ٢٣ ابريل ١٩٩٩م وصفت بالتاريخية حيث تم تغيير المادة الخامسة من ميثاق الناتو من «دفاعي» الى «هجومي» مكنته من القيام بأي حرب باسم «مكافحة الارهاب وتحقيق الديمقراطية في أي مكان من العالم»!!

●●●

وتأسيساً على تلكم الاستراتيجية شن «الناتو» حرباً شرسة وقاسية على أفغانستان في أكتوبر ٢٠٠١م بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر من ذلك العام في نيويورك وواشنطن وتم اسقاط نظام حركة طالبان في كابول لتقترب القوات الأمريكية من التخوم الروسية.. ومع ذلك فشل الحلف حتى اليوم في اعادة اعمار أفغانستان واحلال السلام في ذاك البلد.. الشيء الذي تحقق هو وجود قوات الدول الأطلسية لا أكثر.

وبعد أفغانستان جاء دور العراق فقامت الولايات المتحدة وبريطانيا العضوان الرئيسيان في الناتو بغزو العراق في ٢٠ مارس ٢٠٠٣م وسط رفض دولي وخارج الشرعية الدولية.. بحجة كذبة أسلحة الدمار الشامل.. لكن الحقيقة غير ذلك.. فالهدف احتلال العراق لموقعه الاستراتيجي ولمخزونه النفطي الهائل.

●●●

وما يلفت النظر أن الخلاف الذي بدا واضحاً في مجلس الأمن الدولي وداخل الناتو حول غزو العراق، إلا أن الشواهد تشير الى اتجاه الخلاف الأوروبي – الأمريكي نحو التسوية.

والملاحظ أن الخبراء في الدوائر الأطلسية كانوا وضعوا في نوفمبر ٢٠٠٣م دراسة تحدد الشراكة الأطلنطية في «الشرق الأوسط».. فقد هولت دراسة صدرت عن مؤسسة بحثية أوروبية «Euro Co» من أعظم الأخطار التي تواجه الأمريكيين والأوروبيين، تأتي اليوم من تهديدات تنبع من خارج أوروبا.. فخطر أن يصبح هؤلاء ضحايا بأعداد كبيرة ناتج من الارهاب والدول المارقة والفاشلة في الشرق الأوسط أكثر من أي تهديد حقيقي أو محتمل داخل أوروبا.

ورغم أن الخلافات قائمة بين الأمريكان والأوروبيين على ضفتي الأطلنطي خاصة بين ألمانيا وفرنسا وواشنطن، فيما يتصل باستخدام القوة خارج الشرعية الدولية.. إلا أن الحرص الأوروبي على دور الناتو في الشرق الأوسط في اطار تعاون أوروبي – أمريكي يرنو الى استخدام مشروع الشرق الأوسط الكبير للتغلب على الخلافات مع واشنطن بسبب سياسته الأخيرة في العراق.. ومن ثم فرصة جديدة لجعل المنطقة ساحة لجلب الاستقرار للنظام العالمي الجديد.

وهذه الرؤية الأوروبية لا تختلف كثيراً عن النظرة الأمريكية.. كما تأكدت في ١٩ أكتوبر ٢٠٠٣م ففي وقت انعقاد مؤتمر الناتو للشرق الأوسط في بروكسل قال السفير الأمريكي/ وليام بيرنز الممثل لبلاده في مقر الحلف أن ادارة الرئيس بوش تعتقد أنه يجب على حلف الأطلنطي أن يركز جهوده الآن على الشرق الأوسط الكبير.. مشيراً الى أن الشرق الأوسط ستكون نقطة التركيز الأولى للولايات المتحدة لعشرات السنين القادمة كما يذكر عاطف الغمري في الأهرام في الثالث من مارس ٢٠٠٤م.

وفي مطلع ابريل الحالي قال بوش أثناء استقباله سفراء الدول في واشنطن التي انضمت مؤخراً الى الناتو أنه يؤمن في حلف شمال الأطلنطي وقدرته على تطوير نفسه من أجل مكافحة ما أسماه بالارهاب.

مضيفاً: «انه كلما ارتفع عدد الحلفاء في العراق كان ذلك جيداً..».

●●●

وفي هذه الأقوال المعلنة.. ينبغي علينا أن نفتش بعد عام من احتلال العراق عن اتهام العرب بالارهاب والجهل والتخلف.. وأمام هذه السموم الغربية يتضح لنا العوامل الحقيقية وراء غزو العراق.

والواضح أكثر أن الناتو قادم الى العراق بعد قمته في اسطنبول في يونيو القادم.. إذ سيتم ارسال قوات أطلسية الى بغداد بعد طلب الرئيس الأمريكي/ جورج دبليو بوش ووزير خارجيته/ كولن باول أثناء الاحتفال بانضمام الأعضاء الجدد في بروكسل في الثالث من ابريل الماضي لتأمين نقل السلطة للشعب العراقي في الـ ٣٠ من يونيو القادم، كما فعلت في أفغانستان.

ومع تواجد الناتو في العراق تكون المنطقة برمتها تحت مدافع الأطلسيين بحيث يتمكن الأطلنطي من تحقيق أهدافه الاستراتيجية.. وبالطبع ستكون اسرائيل أول المستفيدين لأن أصابعها موجودة وذاك يحتاج الى وقفة أخرى!!